* **المحاضرة الثانية وأبرز عناصرها:**

**الموقع الجغرافي وسبب التسمية :**

تقع بلاد الأندلس في الجنوب الغربي من أوربا , ويحدها من الغرب المحيط الأطلسي , ومن الجنوب مضيق جبل طارق وجزء من البحر المتوسط الذي يكتنفها ممتدا إلى شرقها , أما في الشمال فتحدها فرنسا التي كان يطلق عليها العرب بلاد الفرنجة .

وكثيرا ما يطلق على الأندلس اسم :( جزيرة الأندلس ) , والواقع أنها شبه جزيرة لا جزيرة , وإنما سميت جزيرة بالتغليب كما سميت جزيرة العرب بذلك .

أما سبب تسمية الأندلس بهذا الاسم فلكي نعرفه علينا أن نقف أولا أمام هذه الكلمة لنسأل : هل عرف العرب هذا الاسم الأعجمي قبل الإسلام ؟ والواقع أن العرب لم يعرفوه إلا في الإسلام , حين أطلقوه على شبه جزيرة إيبيريا بعد فتحها . حيث سمى العرب جميع البلدان الإسبانية التي فتحوها باسم ( الأندلس ) وليس من السهل شرح هذه التسمية ولكن يمكن تقريبها من اسم جماعات الفنداليين الذين هاجموا أسبانيا ومروا بها مهاجرين إلى أفريقيا الشمالية في بدأ القرن الخامس الميلادي . إذ يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم مضيق جبل طارق سمي المرفأ الذي أبحروا منه باسمهم وقيل له ( فَنْدَلس ) , وقد بقي هذا المرفأ على اسمه حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التي احتلوها بعد أن حرفوه وجعلوه ( أندلس)

**الحياة السياسية للمسلمين في بلاد الأندلس**

**الفتح الإسلامي للأندلس :** كتب ( موسى بن نصير ) عامل ( عبد الملك بن مروان ) على المغرب , رسالة يزين له فيها فتح الأندلس لعظيم خيراتها ووفرة غلاتها , وسهولة فتحها ؛ لما تعانيه البلاد من تفكك وانقسام , مؤكدا له أنه سيقف في صفه أثناء الفتح .

فأرسل موسى بدوره إلى الوليد يستأذنه في هذا الفتح , فأذن له على شريطة أن يخوضها بالسرايا أولًا , ولا يقتحم بحرًا شديد الأهوال غير خبير بدروبه ومسالكه , فبعث موسى حينئذ مولى له يسمى ( طريف بن مالك المعافري ) في خمسمائة رجل منهم مائة فارس فعبروا البحر على أربع سفن أعدها لهم.

ثم عاود يوليان الكرة في تحريض موسى على الفتح , فنجح في التأثير عليه واختار موسى بربريا من مواليه يدعى ( طارق بن زياد ) على رأس جيش قوامه سبعة آلاف من البربر, وكان نزولهم على جبل أطلق عليه بعد ذلك جبل طارق . وتم الفتح بعد حروب طاحنة أبلى فيها المسلمون بقيادة طارق بلاء منقطع النظير , وكان العنصر البربري هو الغالب في هذه الحملة كما سبق .

1. **مراحل الحياة السياسية للمسلمين في بلاد الأندلس :**

**المرحلة الأولى :**

*مرحلة عهد الولاة ( 95- 138) :*

وتطلق هذه المرحلة على الفترة الواقعة ما بين الفتح وتولي بني أمية مقاليد الأمور , وكانت الأندلس في هذه الفترة تابعة للخلافة في دمشق, وقد تسبب كثرة الولاة وقصر مدة كل منهم وتنافسهم على مقاليد الأمور في اضطراب الأحوال في عهدهم وذر قرن العصبيات القبلية , فلم يقتصر الصراع على العرب فيما بينهم بل شجر بين العرب والبربر الذين كانوا يعتدون بطارق بن زياد البربري فاتح الأندلس ويعتقدون بأحقيتهم في حكم البلاد , واستمر هذا الوضع حتى تطور إلى فتنة كبرى عرفت فيما بعد بالفتنة البربرية .

وكان من الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة الصراع هذه موجات الهجر المتتابعة التي وفدت إلى الأندلس , وقد كانت على النحو التالي :

دخل المسلمون إلى الأندلس مع الجيش الإسلامي الفاتح وكانوا من العرب والبربر , فنشأ الصراع أولا بين العرب والبربر , ومن ثم بين القبائل العدنانية واليمنية لاختلاف المصالح والرغبة في اقتسام النفوذ .

**المرحلة الثانية :**

*مرحلة السيادة الأموية (138-422) :*

وهذه المرحلة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

* إمارة قرطبة .
* خلافة قرطبة .
* الدولة العامرية .

**أولا : إمارة قرطبة :**

بدأت هذه المرحلة بدخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس , وقد تداول الحكم بعده ستة من أبنائه وأحفاده وكان بعضهم يحاول أن يتشبه بالخلفاء العباسيين الأقوياء كالحكم بن هشام الذي سار سيرة أبي جعفر المنصور , يقرّب العلماء والفقهاء , وأبرز هؤلاء جميعا عبدالرحمن بن الحكم ( الأوسط ) الذي عرف باهتمامه العلمي والثقافي حيث شجع العلماء والأدباء والفلاسفة وكان شاعرا وعالما , وقد بالغ في إكرامهم . وكان هؤلاء الأمراء الأمويون يتصفون بالتسامح الديني ولم يتورعوا عن تعيين النصارى في المناصب السياسية والحربية , وشجع هذا التسامح على اعتناق العديد منهم الإسلام , وكان معظمهم شعراء وعلماء وفصحاء , وقد أدى ذلك إلى ازدهار الحركة الأدبية بفضل رعايتهم لها .

**ثانيا : خلافة قرطبة :**

تبدأ هذه الفترة بتولي عبدالرحمن الناصر الخلافة فهو أول من تسمى بأمير المؤمنين في الأندلس , وذلك بعد أن فقدت الخلافة العباسية في المشرق هيبتها وحضورها الفعلي , فقد سيطر الأعاجم منذ أوائل القرن الرابع الهجري , فاغتنم الناصر هذه الفرصة وأعلن نفسه خليفة , وقد استولى على مقاليد الأمور في الأندلس وهي تعاني من اضطراب داخلي خطير فأعاد الأمور إلى نصابها , ويصف بعض الدارسين عهده بأنه يمثل عودة الشباب إلى الأندلس حيث كان أكثر المثقفين في الأندلس شعراء في عهده أو رواة للشعر , وكان من الشعراء الذين قربهم ابن عبدربه الأندلسي صاحب كتاب ( العقد الفريد ) .

**ثالثا : الدولة العامرية :**

تبدأ هذه الفترة بالحاجب المنصور وهو محمد بن عبدالله بن أبي عامر الذي أمسك فيقبضته بأزمة القيادة في عهد هشام المؤيد الذي تولى الحكم وهو حدث صغير فأقام عهدا جديدا يطلق عليه المؤرخين ( عهد الدولة العامرية ), وكان أديبا شاعرا فشجع الأدباء والعلماء وبموته وموت ولده عبدالرحمن انتهت هذه المرحلة العارضة في عصر الخلافة الأموية , وعاد الأمر إلى البيت الأموي , ولكن الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا ضعافا فأفلت الزمام وانتهى هذا العصر بخلع آخر خليفة أموي في قرطبة وهو هشام الثالث فاقسم البلاد أمراء وزعماء من العرب والبربر و الموالي وبدأ عصر ملوك الطوائف .

**المرحلة الثالثة :**

*عهد ملوك الطوائف ( 400-536 ) :*

وهذه المرحلة تبدأ قبل سقوط الدولة الأموية في الأندلس بعشرين عاما تقريبا , ومن الدول التي قامت في الأندلس في هذه الفترة : دولة بني هود , وبني رزين , وبني حمود , وبني الأفطس , وبني عباد , وبني جهور , وبني ذي النون , وهم ينتمون إلى عناصر مختلفة أما أثرهم في الأدب الأندلسي فكان يتمثل في التنافس فيما بينهم على استقدام الشعراء والعلماء مما أوجد حركة أدبية واسعة , وكان الأدب في هذه البلاد قبل ذلك قد نضج وبلغ أوجه .

**المرحلة الرابعة :**

*عهد المرابطين ( 495- 555) :*

كان المرابطون حكاما للمغرب العربي في شمال أفريقيا , واستنجد بهم ملوك الطوائف وخصوصا المعتمد بن عباد , وكان أساس دعوتهم الاهتمام بعلوم الدين والقضاء على الفساد , وقد اتصف المرابطون بالزهد والتقشف , وقد نشطت الحركة العلمية في عصر المرابطين , وظهر فيها كبار العلماء أمثال ابن باجة , وابن طفيل , وابن رشد , وكلهم من الفلاسفة , وقد حظي العلماء والأدباء في عهدهم بالرعاية والعناية .

**المرحلة الخامسة :**

*عهد الموحدين ( 524-667):*

والأساس الذي قامت عليه دولة الموحدين ديني كذلك , وكانوا أكثر ميلا إلى العلوم والآداب , وأكثر خلفاء الموحدين عناية بالشعراء والعلماء يوسف بن عبد المؤمن الذي آزر الفلاسفة , من أمثال ابن عربي وابن سبعين والششتري .

**المرحلة السادسة :**

*عهد بني الأحمر ( 635-898 ) :*

جاء بنو الأحمر في أعقاب الموحدين , وكانت الفتنة والاضطرابات قد بلغت ذروتها فقد كان محمد بن يوسف أحد ملوكها الأقوياء المنقذ الذي يعقد عليه الآمال في إقالة عثرة الأندلس من كبوتها , واستولى على غرناطة والمرّية وأقام دولة استمرت قرنين ونصف , ولكن النفوذ النصراني كان قد استفحل وقوي , وعانت دولتهم من الحروب الداخلية في غرناطة حيث كثرت الفتن والانقلابات , وكانت نهاية ملك العرب في الأندلس على يد الابن محمد الذي سلم ملك قشتالة مفاتيح غرناطة عام 898 ه , وكان يبكي فقالت له أمه كلمة خلدها التاريخ :" أجل عليك أن تبكي بكاء النساء على ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال ", وغلب على شعر هذه المرحلة سمة الاستغاثة واستنهاض الهمم .

**الحياة الاجتماعية في الأندلس**

**أ-عناصر الشعب الأندلسي :**

ساد في بلاد الأندلس مجموعة مختلفة من العناصر هي : العرب , والبربر , والموالي , والمولدون , وأهل الذمة من نصارى ويهود , والصقالبة .

وقد كان لكل عنصر منها صفات خاصة به وهي على النحو التالي :

1**-العرب :** فالعرب كانوا يُحسُّون إحساسا قويا بنوع من الأرستقراطية نابع من غلبتهم على الإسبان والبربر وإدخالهم في الإسلام , وكذلك من لغتهم التي تفوق غيرها . ولعل شعور التعالي هذا من قِبَل العرب , هو ما كان يولِّد ثورة البربر عليهم أحيانا .

وقد كان العرب في مستهل الفتح قِلَّة بالقياس إلى العناصر الأخرى , ثم أخذت أعدادهم تتكاثر وتنتشر في أنحاء شبه جزيرة الأندلس , بفعل الاستيطان والتوالد , وبالمهاجرين العرب الذين أخذوا يرحلون إليها أفواجا تلو أفواج بعد الفتح الإسلامي .

**2-البربر :** وهم يشاركون العرب في البداوة والإسلام والشجاعة . وكانوا في أول أمرهم أكثر عددا وقوة من العرب , وكان تيار هجرتهم متصلا بحكم الجوار .

وقد تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة تأثرا عظيما , ولم يكد الجيل الأول منهم ينقضي حتى طلع الجيل الثاني أندلسيا قد نسي أصله واتخذ الأندلس وطنا له .

أما من الناحية العقلية فقد اجتهدوا في التعرُّب : يتعلمون العربية , ويُقبل مَن له ميل منهم على دراسة الإسلام والتفقه فيه , ومنهم من اتخذ له اسما عربيا زيادة في التعرب .

وكان لهم أعظم الأثر في بناء الأندلس الإسلامي .

**3-الموالي :** وهم موالي بني أمية , وهؤلاء يمثلون ثلاث طوائف : من دخلوا إبّان الفتح , ومن دخلوا بعد الفتح , ثم من دخلوا في ولاء البيت الأموي من أهل البلاد . وقد كان لهؤلاء الموالي اليدُ الطولَى في إقامة دولة عبدالرحمن الداخل .

هذه العناصر الثلاثة ( العرب , والبربر , والموالي ) هي التي دخلت الأندلس مع الإسلام أو بالإسلام , ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبته . أما الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس , فهم : المولّدون , وأهل الذمة من نصارى ويهود , والصقالبة .

**4-المولّدون :** وهم العنصر الناشئ من تزاوج العرب بالبربر, أو العرب بالإسبانيات والصقالبة . وقد خرج هذا الازدواج بين عربي وبربرية , أو عربي وإسبانية , جيل جديد مولّد يشبه ما كان في الشرق من تزاوج بين عربي وفارسية . وظل اسم ( المولّدين ) يُطلق على هذا العنصر حتى نهاية القرن الثالث الهجري , ثم تلاشت هذه التسمية بعد ذلك بسبب اختلاط الناس , وتحوّلِ أهل الدولة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز . ومن صفات المولّدين من النساء الإسبانيات الشجاعة والذكاء والجمال , وكان لهم في الأندلس تاريخ طويل .

وقد حبّب العرب في هذا الزواج ما عُرف عن الإسبانيات والبربريات من جمال وبياض بشرة واصفرار شَعر وزُرقة عيون , وهي صفات يحبها العربي لأنها جديدة عليه .

**5-أهل الذمة :** وهم الإسبان الذين بقُوا على مسيحيتهم ولم يدخلوا في الإسلام , وهؤلاء كانوا يرون أن البربر والعرب دخلاء عليهم , وأنهم أحق بملك بلادهم .ويندرج مع هذا العنصر الإسباني المسيحي يهود البلاد من حيث معاملة المسلمين لهم , فقد ضمِن المسلمون لهذين العنصرين حريتهم , وأدخلوهم في ذمتهم , مقابل الجزية والخراج على ما تقضي به الشريعة الإسلامية .

**6- الصقالبة :** وقد ظهر هذا العنصر في مستهل القرن الرابع الهجري عندما أنشأ الخليفة عبد الرحمن الناصر جيشا من المماليك يوطد به سلطانه , وكان هؤلاء المماليك من " الصقالبة " وهو اسم كانوا يطلقونه على أسرى الحروب من جميع البلاد الأوربية , وعلى من وقع في أيدي المسلمين من الرقيق . وبهذا أدخل الناصر على الأندلس عنصرا جديدا هو عنصر الصقالبة ,وهكذا امتزجت كل هذه العناصر والأجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب في دمائهم , فكانت لهم نزعة عقلية جديدة , ساعد على تكوينها بالإضافة إلى عملية الامتزاج , بيئة طبيعية غنية , حافلة بشتى المناظر وصور الجمال . وكان من أثر ذلك كله أن أصبحت لهم مميزات عقلية خاصة , وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخلص.

**ب- صفات أهل الأندلس :**

الشعب الأندلسي كسائر الشعوب له صفاته الخاصة التي تميزه وتكشف عن طباعه وأخلاقه ومألوف عاداته . وفيما يلي عرض لأهم صفات الأندلسيين وعاداتهم التي اشتهروا بها :

\***حب النظافة :** وعن هذه الصفة ينبئنا المقّريّ بقوله : " وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم . وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يَقُوته يومَه , فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه , ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها "

\* **كراهيتهم للتسول :** وعادة التسول مستقبحة عندهم إلى النهاية , وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على العمل يستجدي الناس في الطرقات والأسواق سبُّوه وأهانوه , فضلا أن يتصدقوا عليه , ولهذا لا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر .

\* **زِيُّهم :** ومن حيث الزي , فالغالب على أهل الأندلس ترك العمائم , ولاسيما في شرق الأندلس , أما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم فقيها ولا قاضيا مشارا إليه إلا وهو بعمامة . وكثيرا ما يتزيّا سلاطينهم وجنودهم بزي النصارى المجاورين لهم .

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامِّهم مَن يمشي دون (طَيْلسان )[[1]](#footnote-1) , إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم غير عظماء الشيوخ , وكثيرا ما يلبسون غفائر [[2]](#footnote-2) الصوف حُمْرا وخُضْرا , والصفر مخصوصة باليهود , ولا سبيل ليهودي أن يتعمم ألبتة .

والذؤابة [[3]](#footnote-3) لا يرخيها إلا العلماء , ولا يُصرِّفونها بين الأكتاف , وإنما يُسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وهم لا يعرفون أشكال العمائم المشرقية , وإن رأوا على رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف دون أن يحاكوه , لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم , وكذلك الشأن في تفصيل الثياب . أما الأندلسيات فيغلب على زيهن الأناقة والبذخ , والتفنن في الزينة وأشكال الحُليّ .

\***شعار الحِداد :** وإذا كان اللون الأسود هو شعارَ الحداد عند المشارقة , فإن شعار الحداد عند الأندلسيين هو اللون الأبيض , ولهذا اعتادوا أن يلبسوا البياض عند الحداد , وعن ذلك يقول ابن بُرد الأصغر :

يقولون : البياضُ لباسُ حزنٍ .... بأندلسٍ , فقلت : مِن الصوابِ

ألم ترني لبِستُ بياضَ شَعري .... لأني قد حزِنت على الشباب ؟

\***حسن تدبيرهم :** والأندلسيون في شئون حياتهم المعيشية أهل احتياط وتدبير وحفظ لما في أيديهم مخافة ذل السؤال , ولهذا فهم أبعد الناس عن الإسراف والتبذير .

\***تدينهم :** لأهل الأندلس قواعد في ديانتهم تختلف باختلاف الأوقات وبالنظر إلى حكامهم , ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود , وإنكار التهاون بتعطيلها , وقيام العامة في ذلك , وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان.

\* **نساؤهم :** كانت نساؤهم على العموم , أشبه شيء بنساء أهل المشرق : أكثرهن أُميات , وفيهن الجواري اللائي يحسن الغناء والموسيقى , ويبعن بعد أن يتعلمن بأثمان غالية .

وكان يغلب على الحرائر من الأندلسيات الحجاب كأهل الشرق , بل ربما كان حجاب حرائر الأندلسات أشدّ وأعنف , أما الإماء والسَّراري [[4]](#footnote-4) فكان يُتسامح معهن في الحجاب . ولما سفرت ولادة بنت المستكفي الأموي , وشاركت في الشعر والأدب , قوبل سفورها في المجتمع الأندلسي بشيء من الاستغراب .

وكانت البيوت الأندلسية حتى قصور الأمراء والخلفاء مملوءة بالحرائر والإماء من الإسبانيات وغيرهن , وأدَّى ذلك إلى أن يتعدد الأولاد في البيت الواحد من هؤلاء وهؤلاء , وإلى أن يشيع الحقد والنزاع في البيوت بين الحرائر والإماء , وأن يسري ذلك إلى أولادهن . وكثيرا ما تدخلت النساء في السياسة , فمن الإسبانيات من كنّ يتظاهرن بحب العروبة والإسلام , ولكنهن في الحقيقة لم ينسَيْن نصرانيتهن ولا إسبانيتهن . ومن هؤلاء مَن كنّ يتجسسن على الخلفاء , وينقلن لقومهن دقائق الأمور , ويُوقِعن المسلمين في أشد أنواع الحرج. والأندلسيات كالمشرقيات نبغ بعضهن في الشعر , وشعر الغزل خاصة , مثل : ولاَّدة بنت المستكفي , وأم الكرام , واعتماد جارية المعتمد بن عباد .

وكانت الكتابة شائعة بين نساء الأندلس , حكى المراكشي في كتابه ( المعجب في تخليص أخبار أهل المغرب ) أنه كان بمدينة قرطبة نحو 150 امرأة تكتب القرآن بالخط الكوفي , فكيف بغيرها. \***حبهم للغناء :** من صفات الأندلسيين شغفهم بسماع الغناء , حتى ليفضلون الضروري من العيش مع السماع , على العيش المترف مع الحرمان من سماع الغناء .

وكان أمراء الأمويين كغيرهم شغوفين بالغناء , وإليهم يرجع ظهور حركة الغناء وانتشارها في الأندلس .ففي عصر عبدالرحمن الداخل وفد على الأندلس من مغنيات الشرق " فضل" المدنية , و" علم" المدنية , و" قلم" الأندلسية التي أخذت الغناء عن أربابه في المدينة , ثم عادت إلى الأندلس . وقد أسس الأمير الداخل لهؤلاء المغنيات دارا بقصره تعرف بدار المدنيات , وكان يؤثرهن لجودة غنائهن .

ثم ارتفع شأن الغناء في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط , وذلك بوفود المغني ( زرياب ) عليها من الشرق ,وهو الذي أسس مدرسة الغناء والموسيقى والرقص بقرطبة , ووضع الأسس التي قامت عليها الموسيقى الأندلسية .

وكان أهل الأندلس يغنون القصائد الشعرية , وظل الأمر كذلك حتى ظهرت الموشحات الأندلسية , فأخذوا يغنونها مع نغمات الموسيقى .

\***رغبتهم في العلم :** ومن صفات أهل الأندلس أنهم أحرص الناس على التميز , فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم , أو لم تتهيأ له أسبابه , يعمل على أن يتميز بصنعة ما , ويربأ بنفسه أن يُرى عالةً على الناس ؛ لأن هذا عندهم في نهاية القبح .

والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة , ويُرجَع إليه , ويعلو قدره وذكره عند الناس , ويكرَم في جِوار أو ابتياع حاجة , وما أشبه ذلك .

ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم , بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة , وهم يقرءون أو يتعلمون لذات العلم لا للوظيفة . ومن ثَمّ فالعالم منهم بارع ؛ لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك العمل الذي يستفيد منه , وينفق من عنده حتى يتعلم .

وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم , فإن لهما فقط عند بعض الخواص , وهؤلاء لا يتظاهرون بها خوفا من العامة , فإنه كلما قيل : " فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم " ألقت عليه العامة اسم " زنديق" وقيّدت عليه أنفاسه . فإن زلَّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان , أو يقتله السلطان تقربا للعامة . وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجِدت , وبذلك تقرّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه , وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة , وللفقه رونق ووجاهة , ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك , ولقب " الفقيه " عندهم لقب جليل , حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم بالفقيه إعلاء لشأنه , وقد يقولون للكاتب والنحويّ واللغويّ فقيه ؛ لأن هذا اللقب عندهم أرفع السمات . وعلم النحو عندهم في نهاية من علوِّ الطبقة , وهم كثيرو البحث فيه؟

هذا مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام بعيد عمَّا تقتضيه أوضاع العربية , والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه , ولكن النحو مراعي عندهم في القرآن والمخاطبات والرسائل . والشعر عندهم له حظ عظيم , وللشعراء من ملوكهم وجاهةٌ ورواتب جارية , والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة , ويُوقَّع لهم بالصلات على أقدارهم . وإذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعرا فإنه يعظُم في نفسه لا محالة ويسخُف ويُظهر العُجْبَ , عادة قد جُبِلوا عليها .

**حياة الأندلس الفكرية**

نشطت العلوم والثقافات والفنون في الأندلس نشاطا كبيرا لا حد له , فقد كان لهم وسائلهم الخاصة في اكتساب العلم وتأسيس حركته في بلادهم , ولعل أهم الوسائل التي استخدموها في ذلك هي الوسائل الأربع التالية :

**الوسيلة الأولى :**

تتمثل في دعوة بعض علماء المشرق إلى الأندلس ليفيد أهلُه من علمهم وأدبهم , ومن ذلك على سبيل المثال رحيل أبي علي القالي صاحب كتاب "الأمالي" من بغداد إلى الأندلس بدعوة من الخليفة عبدالرحمن الناصر , حيث لقي عنده كل إكرام , واختص بابنه الحكم المستنصر , وأورث أهل الأندلس علمه .

وكان أبو علي القالي إماما في اللغة حافظا لأشعار العرب , فنشر ما شاء الله أن ينشر من علمه في الأندلس , وأخذ يروي مختارات من الأدب حيثما اتفق , ثم يشرح ما يحتاج إلى الشرح نظما ونثرا .

ومن ذلك أيضا أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي , عالم اللغة والأدب والأخبار , فقد رحل إلى الأندلس في ولاية المنصور بن أبي عامر , ونال عنده كل حظوة وجمع له كتابا سماه " الفصوص "نحا فيه منحى القالي في أماليه , وكان نبوغه ومهارته يتجليان في حُسْن بديهته الأدبية , ورواياته الشعرية .

ثم نشأت طائفة من أهل الأندلس تؤلف كما ألَّفا , ومن هذه الطائفة أبو عمر أحمد بن عبد ربه , صاحب كتاب "العقد الفريد " فقد اختار في كتابه زبدة أدب المشارقة , واعتمد على كتبهم , ولا سيما كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة , وكان قصده من وراء تأليف كتابه القعد أن ينقل إلى الأندلسيين أدب المشارقة .

**الوسيلة الثانية :**

تتمثل في رحيل بعض الأندلسيين إلى المشرق , ممن ندبوا أنفسهم لتحمصيل علم من علوم المشارقة والتبحر فيه , ثم العودة إلى الأندلس لنشر ذلك العلم بين أهله .وخير مثال على ذلك يحيى بن يحيى الليثي , فقد رحل إلى المدينة , وتتلمذ للإمام مالك , وأخذ عنه كتابه المسمّى " موطأ مالك " كما سافر إلى مصر وأخذ من أكابر علمائها , ثم عاد ونشر علمه بين أهل الأندلس .

ومثل يحيى الليثي كثير من أهل الأندلس الذين رحلوا إلى الشرق في طلب العلم . وقد أورد المقري في كتابه " نفح الطيب " تراجم كثيرة لمن إرتحلوا إلى الشرق للعلم , وقد بلغ من إقبالهم على ذلك أن كان الرجل يعاب بأنه لم يرحل إلى الشرق .

ومن هؤلاء جميعا ظهرت بعد ذلك طبقة من الأندلسيين يتقنون العلم , ويحملون عبء نشره في كل فرع من فروع العلم .

**الوسيلة الثالثة :**

تتمثل في جمع الكتب وإقامة المكتبات العامة يؤمها الدارسون والباحثون , وقد كان لهذه الوسيلة دورها هي الأخرى , في تنشيط الحركة العلمية والأدبية بالأندلس , وتحريك همم الناس للإقبال على قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقد كانت عناية الخلفاء بالكتب والمكتبات واضحة , فعبدالرحمن الناصر كان شديد العناية باقتناء الكتب النادرة , وكان يرسل من يبحث عنها ويشتريها له من القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر

وكان لابنه الحكم المستنصر مكتبة ضخمة جمع بها كتب لا تُحد ولا تُوصف كثرة ونفاسة , وحشد لها من الحذَّاق في صناعة النسخ والضبط والتجليد العدد الكبير وكذلك مكتبة مأمون الموحدين , يوسف بن عبدالمؤمن , التي كانت تضاهي مكتبة الحكم المستنصر.

**الوسيلة الرابعة :**

تتمثل هذه الوسيلة الأخيرة في أمراء الأمويين وخلفائهم في الأندلس , ثم فيمن تلاهم من ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وبنو الأحمر .

فأغلب هؤلاء لم يكن منهم إلا من هو أديب أو شاعر أو عالم , وهذا يعني أنهم لم يقفوا بمعزل عن الحركة العلمية والأدبية والفنية في الأندلس , بل على العكس نراهم يزجُّون بأنفسهم في هذه الحركة , ويكونون من فرسان حلبتها , ويثرونها بالكثير من نتاج عقولهم وقرائحهم .

وما من شك في أن موقفهم الإيجابي هذا , ممثلا في نتاجهم العقلي , قد رفع من شأن الأدب والعلم في أعين الناس , وشجع منهم ذوي الطموح والمواهب على الاشتغال بهما , والتنافس في الإبداع والابتكار إنشاء أو تأليفا , مما أكسب الحركة الأدبية والعلمية في الأندلس أبعاد جديدة , وأخذ بيدها صُعَدا على طريق النمو والازدهار .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الملوك هم رعاة الحركة الأدبية والعلمية بالأندلس , في كل طور من أطوارها . فهم يتخذون حجّابهم ووزراءهم وكتابهم من مشاهير الأدباء , وفي ذلك ميدان جديد للتنافس بين أدباء كل عصر في نيل حظوة الملوك والتقرب إليهم بالأدب أو العلم , فمن لا تحدثه نفسه منهم بأن يكون يوما وزير ملك أو كاتبا لملك ؟وهم بالإضافة إلى ذلك يعرفون كأدباء وعلماء فضل الأدب والعلم , ومن أجل ذلك كانوا حريصين على تشجيع طوائف العلماء والأدباء والشعراء بالعطاء الجَمْ والاستماع إليهم في مجالسهم الأدبية , وكان من شأن هذا التشجيع أن يزيد من حماسهم , وأن يغريهم بالإجادة والإبداع والتفنن في كل ما ينشئون من نثر وشعر , وكل ما يؤلفون في شتى فروع العلم والمعرفة .

وهكذا وبكل هذه الوسائل نمت آداب الأندلس وتطورت حتى بلغت ذروة كمالها , ثم بفنونها وألوانها وطابعها المشرق البهيج أضافت إلى أدبنا العربي تراثا نفيسا يعتز به كل الاعتزاز .

1. الطيلسان : ثوب موصول به غطاء الرأس . [↑](#footnote-ref-1)
2. الغفائر : جمع غفيرة , وهي لباس يغطي العنق والقفا . [↑](#footnote-ref-2)
3. الذؤابة : هي الشعر المضفور من شعر الرأس . [↑](#footnote-ref-3)
4. جمع سرية وهي الجارية يتسراها مالكها , فإن ولدت منه سميت "أم ولد " وعندئذ لا يحل لسيدها بيعها ولا هبتها ,وتبقى حلا له طوال حياته , فإذا مات صارت حرة تجري عليها كل أحكام الحرائر , أما أولادها فأحرار منذ ولادتهم . [↑](#footnote-ref-4)